أمثلة من الترجمة

Klaus Taschwer
Der Fall Paul Kammerer: Das abenteuerliche Leben des umstrittensten Biologen seiner Zeit

Carl Hanser Verlag, München 2016
ISBN 978-3-7152-0710-0

صفحات 7-21

كلاوس تاشفِر
قضية پاول كامِّرِر: الحياة المليئة بالمغامرات لعالِم الأحياء الأكثر إثارة للجدل

ترجمة: هبة شلبي

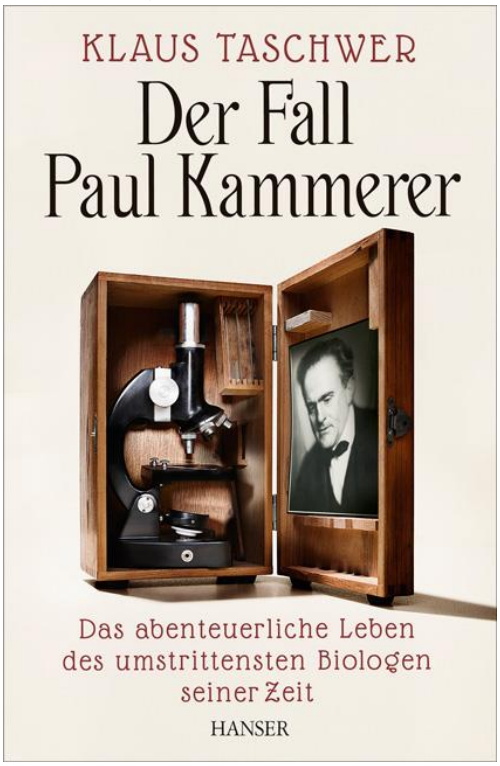

© 2017 Litrix.de

الفصل الأول

انتحار وأسئلة كثيرة بلا إجابات

إنه لمكان ساحر، ذلك المكان الذي شهد النهاية المأسوية لحياة پاول كامّرِر الصاخبة. فـفي يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٢٦ غادر كامّرِر البالغ من العمر ٤٦ عامًا مسقط رأسه في ڤِينَّا واستقلَّ القطار متوجِّهًا إلى پوخبرج. يقع هذا المنتجع الصحيّ حوالي ٦٠ كيلومترًا جنوب غرب العاصمة الفيدرالية عند سفح كتلة شنِبرج الجبلية، ولا يزال يتمتَّع بشعبية كبيرة إلى يومنا هذا، ويمكن الوصول إليه بالقطار في غضون ساعة واحدة. وبعد أن وصل إلى محطة القطار نزل كامّرِر في فندق رودِه القريب من المنطقة، الذي كان قد أقام فيه عدة مرات قبل ذلك. في يوم الأربعاء هذا كان الطقس خريفيًا. وفي صباح اليوم التالي، والذي تجلَّت فيه ميول الطقس الخريفية، ذهب عالم الأحياء ليتمشَّى قليلًا برفقة كلبين من كلاب الفندق.

ذهب كامّرِر في اتجاه هضبة هيمبرج شديدة الانحدار على الحافة الشرقية. إن الطريق من الفندق، والذي يُسمى اليوم فندق شنِبرجهوف (Schneeberghof) يمر في البداية فوق جدول ومنه عبر طريق متعرِّج صعودًا إلى أعلى الهضبة. وبعد السير وسط غابة الصنوبر لمدة نصف ساعة تقريبًا يتفرع من الطريق يمينًا إلى طريق منحدر ينتهي بعد بضعة دقائق عند صخرة تيريزِين. تتمتَّع المنطقة هناك بإطلالة رائعة على كتلة شنِبرج الجبلية وهي أقصى جبال الألب شرقًا، ويبلغ ارتفاعها نحو ٢٠٠٠ متر، وكذا على منطقة پوخبِرج في الأسفل.

المشهد الأخير من حياة پاول كامّرِر: إطلالة من صخرة تيريزِين على كتلة شنِبرج ومنطقة پوخبرج.

© 2017 Litrix.de

وفي حوالي الساعة ٢ عصرًا سمع عامل السكك الحديدية المتقاعد، يوهانّ ليشنِر، نباحًا عاليًا من جهة صخرة تيريزين.كان هذا الرجل يسكن في منطقة نوينكيرشِن الواقعة بالقرب من هذه المنطقة ومنشغلًا في هذه الأثناء بأعمال إصلاح الطرق عند هضبة هيمبرج. وما أن وصل إلى المنطقة المطلة على مكان الحادث حتى رأى رجلًا يتكئ دون حراك على الصخرة بجوار الكلبين. صُعِق يوهان وهرع مسرعًا إلى القرية بالأسفل، وتم إخطار طبيب القرية د. كِربِل وقوات الدرك، ووصلوا بعد حوالي ساعة إلى مكان الحادث. بدا أن الكلبين يحرسان جثة مرافقهما وظل واحد منهما على الأقل لا يسمح لأحد بالاقتراب من الجثة التي وجدوها تحمل مسدسًا في يدها اليمنى. يبدو أن المتوفى قد أطلق الرصاص على رأسه فوق أذنه اليسرى وخرجت الرصاصة من الجانب الأيمن من رأسه وتسببت في تهتُّك جزء من العين أيضًا. إذا عاينَّا لأمر من ناحية الطب الشرعي لوجدنا أن السيناريو القائل بوجود المسدس في يده اليمنى وثقب الرصاصة على الجانب الأيسر من رأسه بحاجة لتفسير. ورغم ذلك لا تزال جريمة القتل فكرة مستبعدة، وذلك لأن فريق العمل اكتشف شيئًا خلال معاينة الجثة يؤكد فكرة الانتحار بشكل قاطع ويتيح إمكانية التعرُّف السريع على المتوفى - حيث وُجِدَت في إحدى جيوب المعطف رسالة وداع موجَّهة إلى "إلى من سيعثر على جثماني":

"يلتمس د. پاول كامّرِر **عدم نقله إلى المنزل** لتجنيب أسرته رؤية هذا المنظر. ربما يكون من الأسهل والأرخص **نقل الجثة إلى قاعة التشريح** بإحدى المعاهد الأكاديمية الجامعية للانتفاع بها. وهو الحل الأفضل بالنسبة لي أيضًا، لأنه سيتسنى لي بذلك إسداء خدمة ولو صغيرة للمجال العلمي. ربما يجد الزملاء المبجَّلون في دماغي أثرًا لما افتقدوه في تصريحات نشاطي الفكري أثناء حياتي. أيًا كان ما سيحدث لجثتي: الدفن أو الحرق أو التشريح، ونظرًا لأنه لم يكن لصاحبها أية توجُّهات دينية فإنه يرغب في إعفائه من المراسم الدينية، والتي كان سيُحرَم منها على الأرجح في جميع الأحوال. إن هذا ليس بموقف عدائي تجاه القسيس بصفته الفردية، فهو إنسان أيضًا كغيره من الناس، بل وإنسان صالح ونبيل في كثير من الأحيان."

ويطلب من زوجته في ملاحظة في ذيل الرسالة ألا ترتدي ثيابًا سوداء أو تبدي أية إشارات تدل على الحداد.

انتشر خبر وفاة پاول كامّرِر كالنار في الهشيم. وإن ما لاقاه الخبر من تغطية هائلة يؤكد أهمية المتوفى بما لا يدع مجالًا للشك: ففي صباح اليوم التالي قدَّمت صحيفة نويه فرايه پرسّه (Neue Freie Presse) ، وهي الصحيفة النمساوية اليومية الوحيدة التي تحظى بصدى دولي، تقريرًا عن الانتحار المفاجئ والمشوب بالغموض لهذا الباحث العلمي:

"جاءنا في ساعة متأخرة من الليل خبر صادم. انتحر عالِم الأحياء البارز، د. پاول كامّرِر، الذي لاقت كتبه ومقالاته في مجال علم الأحياء والاجتماع يضجة مستحقة، والذي اعتاد أن يجذب حوله في قاعات المحاضرات بثِينَّا حشودًا من الجماهير المتحمِّسة وصلت أعدادها دومًا إلى مئة شخص.[...] إلا أن الرسائل التي تركها لا تعطي معلومات كاملة عن أسباب اتخاذه هذا القرار المشؤوم."

وفي ختام هذا المقال يسلِّط عالِم أحياء مجهول الهوية من ڤِينَّا الضوء على ثِقل پاول كامّرِر العلمي والذي "لا يتمثَّل في علمه المذهل الذي يمتد إلى كافة مجالات علم الطبيعة فحسب، بل وكذا فيما كان يتمتَّع به من موهبة في تجسيد علومه بأسلوب سهل الفهم." وفي معهد البحوث البيولوجي (BVA)، الذي عمل فيه كامّرِر منذ تأسيسه عام ١٩٠٣، "نشأت سلسلة من الأبحاث المذهلة التي تتمحور حول وراثة الصفات المكتسبة في المقام الأول، وكانت سببًا في اكتسابه شهرة مفاجئة على الصعيد العلمي عالميًا". كما أكَّد أن كامّرِر لم ينقصه الأصدقاء، أو حتى الأعداء وأن تطلُّعه إلى نيل منصب الأستاذية رسميًا في ڤِينَّا لم يتحقق وهو ما سبب له ألمًا مريرًا. إلا أنه نال في مقابل ذلك درجة الأستاذية في الاتحاد السوفيتيّ قبل أشهر قليلة من وفاته، وفقًا لما جاء في صحيفة نويه فرايه پرسّه.

"كان من المفترض أن يرحل إلى موسكو خلال بضعة أيام ليبدأ العمل بالتدريس في ١ أكتوبر، وهو ما أثار ذهول وألم جميع أصدقاءه بشكل خاص حين علموا مساء أمس بنبأ إطلاقه النار على نفسه بمنطقة شنِبرج".

وذكرت الصحيفة أن كامّرِر قد أرسل رسالة وداع إلى مقر قنصلية الاتحاد السوفيتي بڤِينَّا وأخرى إلى زوجته:

"لقد تحدَّث في الخطاب الذي وجَّهه إلى زوجته عن عدم قدرته على الامتثال لقرار تعيينه في موسكو وعن شدة ارتباطه بڤِينَّا، وأنه لا يبقى أمامه خيار آخر عدا إنهاء حياته إزاء تعارض التزاماته".

وفي نفس تلك الصحيفة التي كان كامّرِر قد ساهم فيها بعدة مقالات، تسنى لخبر وفاته أن يحتل صدارة الصفحة الأولى في الطبعة التي صدرت مساء يوم الجمعة: تحت عنوان "المأساة النمساوية" يحاول المعلِّق أن يتكهَّن بالخلفيات المحتملة للواقعة ويفترض أن قرار كامّرِر لم يكن ليدخل في حيز التنفيذ لو أن وطنه أتاح له فرصة عمل:

"رغم أن د. كامِّرِر كان شخصية مثيرة للجدل في الأوساط العلمية، إلا أنه لا يمكن إنكار قيمته الكبيرة ومهاراته، وهو ما كان يستحق بذل الجهد لإبقاءه في ڤيِنَّا".

إلا أن هذا لم يحدث ووجد كامِّرِر نفسه "مُجبرًا على الاغتراب" لكنه لم يشعر بالارتياح وهو بعيدٌ عن وطنه "مما أوصله إلى هذه الحالة النفسية التي تجسَّدت في النهاية من خلال مأساة پوخبِرج".

إلا أن انتحار كامِّرِر لم يستوجب تقديم تقارير واسعة من قبل كافة الصحف النمساوية الكبرى فحسب. فنجد أن صحيفة نيويورك تايمز، على سبيل المثال، قد أهدت له في اليوم الثاني بعد انتحاره رثاءً طويلًا، وكانت هذه الصحيفة قد كرَّمته قبل الواقعة بنحو ثلاثة أعوام بوصفها إياه "داروين الثاني" أو "خليفة داروين" في العديد من المقالات". وذكرت الصحيفة أن هذا الباحث كان ينتمي لمدرسة غير تقليدية في العلوم

"فالأوساط العلمية المحافظة لم تقبل بنظرياته، ونظرت إلى اشتراكيته باستنكار، وتصدَّت لجهوده نحو تعميم معارفه العملية، وحالت بالتالي دون تحقيق حلمه بشغل منصب أستاذ في ڤيِنَّا".

إن التكهُّن بالأسباب التي دفعت الباحث البيولوجيّ إلى الانتحار استمر على مدى الأيام التالية وشغل العديد من الصحفيين لاسيما في النمسا. تقدَّمت صحيفة نويه فرايه پرِسِّه، وهي من الصحف المطَّلعة جيدًا عادة، ببعض الإفادات من جانب أصدقائه والتي كان من المفترض أن تسلِّط الضوء على القضية: "ربما يكون عجز فنانة فينِّية كانت قريبة من قلبه عن اتخاذ القرار بمرافقته إلى موسكو، من اللحظات الحاسمة التي أدت به إلى اتخاذ القرار المشئوم بإنهاء حياته". تلك الفنانة هي جرِته ڤيزنتال، أشهر راقصة في ڤيِنَّا آنذاك، ورغم أن الصحيفة لم تذكر اسمها صراحة، إلا أن هذا الخبر سلَّط الضوء على حياة كامِّرِر الجامحة:

"كان عاشقًا للموسيقى والنساء على حد سواء. إن زوجته الأولى، والتي تميَّزت بجمالها، [...] تفهَّمت موقفه وأعطته حريته حين أراد الزواج بامرأة أخرى مثيرة للاهتمام. ولكنها ظلَّت صديقته المخلصة، التي كان يتناول معها وجباته ويتحدَّث معها عن خططه."

وكانت الصحيفة قد ذكرت في اليوم السابق أن كامِّرِر تزوج مرتين وأن الزيجتين انتهتا بالطلاق. وقالت أن ارتباطه بزوجته الأولى، ابنة د. فون ڤيدرشبِرج، سياسي ونائب في المجلس الإمبراطوري السابق، أنهى مسيرتها الواعدة في مجال التمثيل. أما زواجه الثاني فكان من رسَّامة ناجحة وشهيرة.

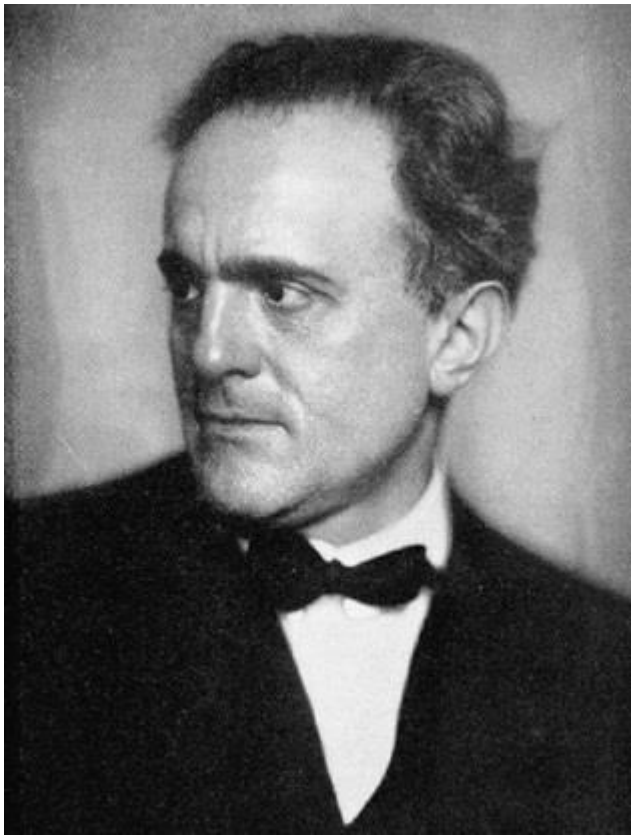

الصورة التي صاحبت نعي پاول كامّرِر، استمرَّت التكهنات بشأن الدوافع التي أدَّت به إلى الانتحا

هل يعود انتحاره حقًا لمشكلات ذات صلة بعلاقاته الشخصية؟ في صحيفة نويه ڤينر جورنال (Das Neue Wiener Journal) اليومية تصدى أحد تلاميذ كامّرِر السابقين، وهو الصحفي والباحث البيولوجيّ ڤالتِر فينكلِر، إلى التكهنات التي تتناول حياة كامّرِر الشخصية قائلًا: "دعكم من الأسرار الحميمية، تلك ليست هي الدافع وراء انتحاره، بل ربما مجرد سبب مهم على أقصى تقدير. إن صراعه كان أعمق وأسمى من ذلك، فقد مات ميتة الأبطال في معركته العبثية في مواجهة الهراء والقيود وشبح التراث." وذكر أن تجارب كامّرِر على الحيوانات كان من الممكن أن تضرب "كالصاعقة كل ما كُتِب عن مذهب التطوُّر التنظيري".

فقد نجح، وفقًا لفينكلِر، في إثبات "أن العوامل الخارجية تؤثر على غرائز وتكوُّن الكائنات الحية على نحو مستدام، بحيث يتسنى توريث تلك الصفات المكتسبة إلى الأجيال التي لم تخضع لهذا التأثير بشكل مباشر": فبفضل تجارب كامّرِر صار لدى حيوانات السلمندر العمياء عيون قادرة على الإبصار وازدادت الرقع والخطوط على جسم السلمندر الناري، كما أصبح لدى العلجوم القابلة، واسمه العلمي " Alytes obstetricans"، ما يُسمَى بإبهام أو عُجرة التزاوج، والتي لم يكن ليمتلكها لولا ذلك. تحوَّلت تجارب كامّرِر العلمية إلى قضية سياسية بين عشية وضحاها، وذلك لأنها كانت "تهدد النظريات التي تستند إلى عدم قابلية تغيُّر الخصائص العرقية وإلى القيمة العنصرية المطلقة والسلطة المطلقة للصفوة المنتقاة، وكذلك إلى النظرية التي تقضي بضرورة الإبادة الجماعية للشعوب باعتبارها عاملًا من عوامل الاصطفاء". أكان لانتحار كامّرِر خلفية سياسية أيضًا؟

في صحيفة نويه ڤينر تاجِبلاتّ ساهم صديق آخر من أصدقاء كامّرِر بمقال: إنه الشاعر پيتر شتورمبوش، وهذا هو الاسم المستعار الذي توارى خلفه الممثل والمخرج، شتيفان لوكس، من براج. فقد أحيا ذكرى المتوفى بعبارات شخصية وتطرَّق خلالها إلى مسيرة كامّرِر المهنية بجامعة ڤينّا والتي لم يكتب لها النجاح:

"كان پاول كامِّرِر هو العالِم الأكثر تحررًا في هذه البلاد، ولكن، بم تفيده حريته في أوساط رجعية متخلِّفة؟ إن مدرستنا الأم، والتي طالما اتسمت بالتساهل في المواقف الأخرى، لم تكن تريد أية صلة بابنها، ذلك الابن الذي كان ذو طبيعة مختلفة عن غيره من أبنائها المطيعين. إنها أم حكيمة، تعرف أبنائها جيدًا، بل وقادرة على التعرُّف عليهم أيضًا. إلا أن مدرستنا الأم لم تكن بهذا القدر من الحكمة كما ظننا!"

من جهة أخرى ذكر شتورمبوش أن كامِّرِر كان طفلًا عابثًا ساذجًا رغم شغفه الشديد بالعلم والأبحاث. ولكن: "هل هناك شيء أجمل يمكن لقلب مثل هذا الإنسان والفنان العظيم أن يفعله عدا التصرُّف بسذاجة!" وهناك قصيدة مطبوعة بين طيات النص، كان شتورمبوش قد أهداها لصديقه قبل بضعة أشهر من وفاته:

إن العبقرية في هذه البلاد

لممنوعة بأمر الكنيسة والدولة.

ابحث لعقلك عن وطنٍ آخر

لأنك لا تُرَمِّم هنا سوى عقول الحمقى فقط.

رفضوا منحك "الأستاذية

وأرفقوا رفضهم بكلمات مهذَّبة؛

"لا يليق بك الانضمام لهيئة تدريسنا

فشأنك أعظم بكثير!"

في أعمالك ينتفض قلبٌ بشريّ

وأحيانًا ما ترمح محبوبة عبر خاطرك...

تشعر الطبيعة أنك تفهمها،

وتضع لك الورود خلسة في حجرتك.

قام كامِّرِر بتلحين بعض قصائد شتورمبوش، ذلك الذي انتحر بعدها بعشرة أعوام انتحارًا مثيرًا، وإن كانت تلك الحادثة منسيَّة اليوم إلى حد بعيد. فقد قتل شتورمبوش نفسه في ٣ يوليو عام ١٩٣٦ في چنيف خلال انعقاد جلسة الجمعية العمومية لعصبة الأمم من أجل جذب الاهتمام إلى اضطهاد اليهود في الرايخ الألماني من قبل النازيين.

وفي يوم الأحد الموافق ٢٦ سبتمبر ١٩٢٦ في تمام الساعة الرابعة عصرًا نُقِلَ جثمان پاول كامِّرِر من المشرحة إلى مدافن پوخبرج عند جبال شنِبرج وذلك ضد رغبته الأخيرة. وخلت مراسم دفنه من أية مظاهر فخمة. تقع مقبرة كامِّرِر في الصف الأول على يمين المدخل في الركن المخصص للمنتحرين. ووفقًا لما جاء في أحد التقارير، فقد رافق المتوفى إلى مثواه الأخير وفود من جامعة ڤيِنَّا ومختلف المعاهد العلمية ومؤسسات التعليم العالي إلى جانب ذويه وعدد لا حصر له من الأصدقاء. كما حضر الجنازة وفد من الاتحاد السوفيتي، والذي تبادلت معه زوجته الأولى فيليسيتاس بضع كلمات باللغة الروسية. وقام بعض ممثلي جامعة ڤيِنَّا وكذا مجموعة كبيرة من الأصدقاء بإلقاء عبارات رثاء قصيرة، وكان من بينهم مرشد كامِّرِر، وهو عالم الأحياء هانس پشيبرام. والذي أكَّد خلال خطبته أن العلم الحقيقي سيحرص دومًا على إحياء إنجازات كامِّرِر.

إلا أن جدل الرأي العام حول انتحار پاول كامِّرِر لم ينتهِ بدفنه بأي حال من الأحوال – بل اتخذ منحنى آخر: فبعد مرور أسبوعين فقط نُقِلَت رسالة مفاجئة عن موسكو سلَّطت الضوء على واقعة الانتحار من منظور مختلف تمامًا. قامت صحيفة البرافدا (Prawda) بطباعة رسالة الوداع التي كان كامِّرِر قد أرسلها إلى ديوان رئاسة الأكاديمية الشيوعية. وجذبت هذه الرسالة اهتمامًا كبيرًا حتى أنها أثارت موجة من التقارير في الصحف والمجلات الأسترالية والأمريكية والبريطانية بعد أن نشرته دائرة الأنباء المركزية (Central News Service)

وجريدة المراسلات الصحفية الدولية (Pressekorrespondenz Internationale). هذا ما جاء في الرسالة التي كتبها كامِّرِر لزملائه في موسكو في اليوم السابق لانتحاره:

"تعلمون جميعًا، على الأرجح، بشأن الهجوم الذي شنَّه البروفيسور نوبل ضدي في دورية نايتشِر الصادرة في لندن (Nature) بتاريخ ٧ أغسطس ١٩٢٩. ويستند هجومه إلى قيامه بفحص عينة من العلجوم القابلة ذات عجرة التزاوج بتصريح مني في مؤسسة ڤينَّا للأبحاث البيولوجية جنبًا إلى جنب مع البروفيسور پشيبرام. وتعود المشكلة الأساسية إلى وجود بقعة من الصبغة الصناعية، وهي بقعة حبر على الأرجح، يُفتَرَض أنها استخدمت من أجل تزييف ومحاكاة لون الجلد الأسود في منطقة العجرة. أي أننا سنكون بصدد عملية تزوير سيُلقَى اللوم فيها على عاتقي على الأرجح.

وقد تأكَّدت من صحة تصريحات د. نوبِل بالكامل؛ أجل، عُثِر على كائنات أخرى (حيوانات سلمندر مصبوغة باللون الأسود) من المفترض أنه قد جرى "تصحيح" نتائجي عليها أثناء التشريح. وقيل أنه احتمال ضعيف للغاية أن يكون هناك شخص آخر غيري لديه مصلحة في إجراء مثل هذا التزوير؛ إلا أن المؤكد هو أن هذا الأمر يشكك في كافة الإنجازات التي حققتها على مدى حياتي.

بناء على هذه الواقعة، لا يحق لي أن أرى في نفسي الرجل المناسب لقبول وظيفتكم، رغم أنني لم أشارك في تزوير عينتي. ولا أجدني قادرًا أيضًا على تحمُّل انهيار حياتي المهنية، وأرجو أن تواتيني غدًا القوة والشجاعة لأضع حدًا لحياتي الفاشلة."

كما ذكر كامِّرِر في خطابه أنه لم يرغب في تأجيل إرسال ممتلكاته، التي هي في الطريق إليهم بالفعل، لسببين: أحدهما أنه "كان من شأن هذا أن يلفت انتباه أسرتي إلى تصرُّفي، ولم أكن أريدهم أن يعرفوا شيئًا عن نواياي"، والآخر هو رغبته في أن تحصل الأكاديمية الشيوعية في موسكو على مكتبته "وأن يعوِّضها ذلك عن خدماتي التي انتظرتها مني دون جدوى".

بناء على هذا الخطاب، شهدت نقاشات الرأي العام وكذلك الدوائر العلمية حول أسباب انتحار كامِّرِر تحوُّلًا مفاجئًا، رغم خلو الرسالة من أية اعترافات أو حتى تلميحات في هذا الاتجاه. فجأة لم يعد كامِّرِر ضحية لمشكلات علاقاته الشخصية أو لتجاهل جامعة ڤينَّا له، بل تحوَّل إلى مشتبه به في عملية تزوير واعتُبِر انتحاره اعترافًا منه بجريمته. بل وصل الأمر إلى حد أن تم تداول الواقعة في الصحف الأمريكية الصفراء من خلال افتتاحيات مثيرة تشير إلى الآتي:لا بد وأن كامِّرِر قد تلاعب بالنتائج بنفسه وأنه قد تحمَّل العواقب بعد افتضاح أمره.

أما في الصحف النمساوية فقد اتسم المشهد بالتقلب. اعتبرت صحيفة نويه ڤينر تاجبلاتّ تجاربه التي أجراها على العلجوم القابلة والمعنية بالتلاعب هي الدافع وراء انتحاره. بل وتم تلخيص تلك التجارب لتوضيح الواقعة: فمن المفترض أن كامِّرِر أجبر هذا النوع من العلاجيم على النزول للماء، والمعروف عنها أنها نوع نادر من العلاجيم لا تتزاوج في الماء بل على البر. ويُفترَض أيضًا أنه أصبح لدى العلاجيم الذكور ما يُسمى بـ إبهام أو عُجرة التزاوج المعهودة لدى أنواع الضفادع الأخرى. إن هذا الإبهام يساعد الذكور على الإمساك بالإناث اللزجة في المياه حتى لا تنزلق منها. وقيل إن كامِّرِر زعم أنه لم ينجح فقط في استنبات هذا العضو، بل وأنه سيتحوَّل إلى صفة قابلة للتوريث أيضًا. وقد نشب منذ عدة سنوات مضت نزاع علمي حول هذا الدليل الذي يُفتَرَض وأنه أثبت قابلية توريث الصفات المكتسبة.

"إن علماء الأحياء من الإنجليز تحديدًا قد أنكروا صحة بيانات كامِّرِر. فقبل عام من الحرب وفي أحد أعداد دورية نايتشِر الصادرة في لندن زعمت إحدى المقالات أن العُجرة التي ذكرها كامِّرِر ليست سوى بقعة سوداء ولا يمكنها أن تكون عُجرة تزاوج بأي حال من الأحوال. [...] وبالتالي، فإنه ليس من المستغرب أنه قد عانى من اكتئاب شديد بعد أن أثبتت الدلائل الآن أن المسألة ليست سوى عملية تزوير كبرى."

يتجه سياق المقال إلى التلميح بأن من قام بالتلاعب هو كامِّرِر نفسه. ولكن ثمة العديد من الفرضيات الأخرى: فنجد أن صحيفة نويه فرايه پرسِّه تفترض وجود مزوِّر غامض في مؤسسة ڤينَّا للأبحاث". وفي حديثه مع أحد مراسلي الصحيفة أشار هانس پشيبرام، مدير مؤسسة ڤينَّا للأبحاث البيولوجية وأفضل المطَّلعين على أبحاث زميله السابق، إلى الآتي:

"لو أننا استشفَّينا مما جاء في خطاب پاول كامِّرِر أنه يتهم نفسه، لوقعنا فريسة لمغالطة بشعة. [...] أما بالنسبة للصبغة الصناعية التي اكتشفها البروفيسور نوبِل في عجرة تزاوج العلجوم القابلة، فهو أمر يبعث على الحيرة حقًا، من عساه يكون مسئولًا عن هذا الأمر. إن تجارب كامِّرِر المعنية تعود لعدة سنوات مضت، ولذلك فإنه لمن شبه المستحيل أن يتسنى لنا اليوم أن نتعرَّف على المسؤول عن تلك الفعلة آنذاك. ولإدراك كامِّرِر أن ملابسات هذه الواقعة لن تنكشف أبدًا في الغالب، فقد قرر أن يضع حدًا لحياته بعد أن سئم، على ما يبدو، كمّ الهجوم الذي لاقاه عن غير استحقاق".

وبعد فترة قصيرة تناول القضية صحفيان معروفان في الوقت الحالي باعتبارهما أشهر الصحفيين الناطقين باللغة الألمانية آنذاك. إن ما كتبه الصحفيان في نعي كامِّرِر لخَّص كلا الموقفين السابقين مرة أخرى، تلك المواقف التي كانت تحدد ملامح النقاش قبل أن تَثبُت شبهة التزوير بمرور الوقت وبطريقة عجيبة على كامِّرِر ويُعتَبر انتحاره إقرارًا واضحًا منه بارتكاب الذنب.

كتب إجون إروين كيش، ذلك النجم الصاعد بسرعة البرق في سماء المراسلين، مقالًا في هذا الشأن في صحيفة برلينر مونتاجسبوست الأسبوعية. تحت عنوان "تزوير الدليل العلمي – قضية كامِّرِر" لم يكتفِ إروين كيش بتلخيص الموقف العلمي إزاء قضية تجارب العلجوم القابلة التي تم التلاعب بها بإهمال لا نظير له، بل وقام إلى جانب ذلك بنشر معلومة كاذبة تمامًا؛ فقد كتب أن كامِّرِر قد صرَّح أن "تلك الصبغة لا يمكن وأن تكون قد أضيفت إلا من قبل أحد المساعدين أثناء الحرب، وذلك من أجل إبراز نتائج التجربة وأن كامِّرِر أنهى حياته لأن شبح الاتهام ألقي بظلاله عليه." إلا أنه ما من أحد عدا كيش جاء بمثل هذه المعلومة القائلة بأن أحد المساعدين هو من أضاف تلك الصبغة الحبرية أثناء الحرب، بل والأدهى من ذلك أنه هو نفسه لم يصدق تلك المعلومة المُختلقة سوى جزئيًا واتهم كامِّرِر أنه مزوِّر:

"إنها مأساة الطموح العلمي إذن، والذي ربما يكون قد تطوَّر إلى حد الإجرام جراء الفشل والشك. لا شك أن كامِّرِر عالِم أحياء بارز جدًا، وقد تألَّم لأنه لم تتسنى له الفرصة لشغل منصب أستاذ في ڤيِنَّا لما لأبحاثه من تأثيرات، من بينها تلك العلمية الشعبية أيضًا، وهو ما حدث ومازال يحدث للعديدين غيره في ڤيِنَّا من أمثال المحلل النفسي زيجموند فرويد والمؤرِّخ لودو هارتمان وألفريد آدلِر، صاحب مدرسة علم النفس الفردية. إلا أن ذنب كامِّرِر هو أنه كان يسعى إلى إثبات نظرية تُعتَبر غير حقيقية من خلال التجارب، ولأن الحظ لم يحالفه وعلت أصوات المعارضة وأصبح اسمه كباحث في موضع تهديد، فقد تدخَّل ودفع الحظ في هذا الاتجاه - عن طريق التزوير".

وتناولت مقالات صحفية أخرى القضية من نفس المنطلق، كمثل هذا المقال الذي نُشِر في جريدة براجِر تاجبلاتّ المرموقة تحت عنوان "Verführung durch das Experiment" (قدرة التجربة على الإغواء) والذي تضمَّن أيضًا بعض التخمينات بشأن كيفية تحوُّل كامِّرِر إلى مزور:

"هكذا تسنى، توجيه التجربة في هدوء إلى نتائج غير دقيقة وإن كانت منشودة، وذلك استنادًا إلى رغبة الباحث ولكن من دون أن يلحظ الأمر. ولكن التجربة لها قدرة كبيرة على إغواء المرء للإقدام على التزوير المتعمد: كمن خلال تعديل بيانات إحدى الدراسات التحليلية على نحو طفيف أو تعديل صورة ميكروسكوبية بعض الشيء – لتنتهي معاناة الباحث بضربة واحدة ويكتسب الشهرة والسلطة."

وفي النهاية لم يكن أمام الصحفي الڤيِنِّيّ كارل كراوس إلا وأن يكرِّس جهود مجلته دي فاكِّل (Die Fackel) نحو واقعة انتحار كامِّرِر والتي تطوَّرت لتصبح قضية جنائية غير قابلة للحل. فمن خلال مقال اتسم بالغموض حمَّل كراوس المؤسسة الأكاديمية المسئولية المشتركة عن موت كامِّرِر، لنكون بذلك قد عدنا لبداية القصة من جديد:

"إن عبارة ليسِنج 'سيُحرَق اليهودي' لتكفي عن الفلسفة، وحق الاستجواب يكفي عن القانون [...]. إن أمثال كامِّرِر لا يموتون فقط بسبب الحواجز التي يضعها أمامهم خفافيش الظلام من المنتمين للمجال العلمي، بل وأيضًا بسبب لامبالاة المخلوقات النهارية التي تُؤْثِر البوم والنسور [...]. إن المجال العلمي القائم على الحِرَفيَّة يستهين بأمثال كامِّرِر لسرعتهم الشديدة، لأنهم يتعيَّن عليهم الفرار من المعجزة قبل أن يتسنى لهم إثباتها لآخر مدى. وإن هذا العلم لا يدرك أن أفضل أبنائه ينبغي وأن يتناولوا خبزًا ساخنًا، وأنهم لا يسعهم الانتظار حتى يصبح بائتًا، فهم بحاجة لأسنانهم ليعضوا على أناملهم من الغضب وليس ليفقدونها في استنتاجات عفا عليها الزمن".

وتحوَّل انتحار كامِّرِر إلى قضية دولية بشكل نهائي من خلال الموجة الثانية من موجات التقارير الصحفية التي اجتاحت البلاد، على الصعيدين المحلي والدولي. إلا أن الأجواء انقلبت ضده بشكل واضح – رغم أن معظم الأسئلة ظلت مفتوحة.

إن هذه الواقعة، التي تعد على الأرجح أكبر فضيحة علمية شهدها النصف الأول من القرن العشرين ولم تُحسَم حتى يومنا هذا، لم تشغل الصحفيين والباحثين المعاصرين فحسب، بل وشغلت كذلك رجل ذو سلطة أكبر بكثير: إنه أناتولي لوناتشارسكي وهو مفوض الشعب لشؤون التعليم في الاتحاد السوفيتي، وكان قد التقى بكامِّرِر شخصيًا في موسكو في ربيع عام ١٩٢٦ وعيَّنه أستاذًا. كان سياسيًا في الشؤون الثقافية وفي عهد لينين من المسئولين عن الأجندات الثقافية والتعليمية والعلمية لأكبر دولة في العالم ابتداءً من عام ١٩١٩. وإن انتحار كامِّرِر قد جذب انتباهه لدرجة أنه ألَّف عنه مسرحية.

وبعد مرور سبعة أسابيع فقط على انتحار كامِّرِر كان لوناتشارسكي قد انتهى من سرد الواقعة بالتفصيل في إطار عمل مسرحي، وكأنّ مفوض الشعب الروسي ليس لديه شيء آخر أو أهم ليقوم به. وهو ما نوَّهت عنه جريدة نويه فرايه پرِسّه اليومية في يوم ١١ نوفمبر ١٩٢٦: يسعى لوناتشارسكي في عرضه المسرحي الذي يحمل عنوان "السلمندر" إلى إثبات "رجعية توجُّهات العلماء الأوروبيين والتي يُفتَرَض أنها قادت كامِّرِر إلى الموت". وبالفعل تم تجسيد عالِم الأحياء الفينِّيّ في إطار هذا العمل الرثّ والمعقد باعتباره ضحية لمؤامرة سياسية ودينية ضخمة. ويرى السياسي الثقافي والمفكِّر الروسي العظيم أن سبب هذه المؤامرة بديهي: فالأدلة التجريبية التي أثبت بها كامِّرِر إمكانية توريث الصفات المكتسبة كان من شأنهافي الوقت نفسه أن تثبت صحة مفهوم المادية الجدلية وبالتالي توفير أساس بيولوجي للإيديولوجية الشيوعية التي تتمحور حول "الإنسان الجديد" والتي تستند إلى إمكانية "تحسين" مجتمعات بأكملها عبر تغيير الظروف المعيشية لمصلحة البشرية فقط والتخلي نهائيًا عن السيادة الموروثة للنبلاء والكنيسة.

ونتيجة لذلك، قام لوناتشارسكي بتحويل مسرحيته المكوَّنة من سبعة فصول إلى سيناريو لفيلم باسم "السلامندرا" والذي تم تصويره أغلب مشاهده في مناطق ألمانية في إطار إنتاج ألمانيّ روسيّ مشترك عام ١٩٢٨. لعب دور پاول كامِّرِر آنذاك نجم الأفلام الصامتة الألماني برنهارد جوتسكه والذي كان يشبهه حقًا، إلا أن اسم شخصيته في الفيلم كارل تسانجِه وهو أستاذ في علم الحيوان في جامعة كائنة بمدينة من المدن الفاشية بالعصور الوسطى، والتي لم يُذكَر اسمها، وتم تجسيد مواقعها من خلال التصوير في عدة مناطق ببرلين وميونخ ولايبتسيج وإرفورت. وقد كان للوناتشارسكي دور قصير في هذا العمل المثير للجدل، وجسَّد من خلاله نفسه. ولعبت زوجته، الممثلة ناتاليا روزِنِل، دور فيليشيا، زوجة تسانجِه التعيسة.

إليكم محتوى الفيلم باختصار شديد: تدور أحداث الفيلم حول البروفيسور كارل تسانجِه المحبوب من قبل طلابه وحول منافسه هو البروفيسور پاتِر برِشينسكي والذي يتحداه لمشاركته في مناظره عامة. في الوقت نفسه يسعى البارون پِتيكسيوس، وهو مصرفيّ وجغرافيّ، وكذا الأمير روپرِشت كارلشتاين إلى إسكات تسانجِّه لما وجدوه من تهديد للدين ولسيادة النبلاء في أدلته التي أثبتت إمكانية توريث الصفات المكتسبة.

وقد لجأ الفيلم الصامت إلى بعض العناصر الدرامية: فنجد مثلًا أن إحدى الشخصيات الثانوية تُقتَل من قبل المصرفيّ بسكين محفور عليه علامة الصليب المعقوف، إضافة إلى انتشار تزوير النقود على نطاق واسع. ولكن في قصة لوناتشارسكي تم التلاعب بعينات البرمائيات من قبل الأمير كارلشتاين الذي عرض خدماته على تسانجِه للعمل كمساعد له ووصل الأمر أن سرق منه زوجته فيليشيا أيضًا. وكأن هذا كله ليس بكافٍ، فيتم التشهير بعالِم الأحياء على الملأ باعتباره متحرِّشًا بالأطفال وفصله من العمل في ضوء عمليات التزوير المزعومة. يصبح تسانجِّه فقيرًا معدمًا وتهجره زوجته، فيكافح من أجل البقاء على قيد الحياة وتنفيذ تجربته على حيوان السلمندر. في الوقت نفسه، يقوم برشينسكي بالتحديد، وهو قسيس وباحث في علم حيوان، بتسميم فيليشيا، التي تميل إلى الكثلَكة رغم كل شيء، شأنها في ذلك شأن فيليسيتاس الحقيقية.

كارل تسانجِّه أو پاول كامِّرِر خلال مشهد المواجهة الدرامية من فيلم "سلامندرا"

تتطوَّر الأحداث في النهاية لتصل إلى مواجهة درامية تقود عالِم الأحياء إلى نهاية سعيدة: فقبل أن يجد تسانجِّه نفسه في مأزق وضحية في النهاية لمؤامرة كاثوليكية-رأسمالية-أرستقراطية مشتركة ويقتل نفسه باستخدام مسدس في يده، ينقذه في اللحظة الأخيرة وفد روسي بأمر من لوناتشارسكي. ويشهد الباحثين الزائرين جنبًا إلى جنب مع تسانجِه المُصاب بطلقة، السمادل التي قام تسانجِه بتربيتها بآخر ما تسنى له من مجهود، وهي تنجب صغارًا سود ويكون بذلك قد أثبت صحة نظريته.

وفي اللقطات الأخيرة من الفيلم نرى البروفيسور كارل تسانجِه أو الذي يرمز في الفيلم إلى پاول كامِّرِر يجلس في قطار متَّجه إلى موسكو، حيث وجدت "أفكاره الخلَّاقة التقدير اللازم". إلا أن پاول كامِّرِر الحقيقي حُرِمَ من مثل هذه النهاية السعيدة. فبالنسبة إليه كان السفر إلى مدينة موسكو في الغربة سببًا يدفعه بالأحرى لإنهاء حياته، وهو ما أشارت إليه أيضًا التقارير الصحفية بعد انتحاره. ولكنه ليس من شأن نظريات المؤامرة الخيالية التي سردها لوناتشارسكي أن تساهم مساهمة منطقية في حل القضية الجنائية والتي لم تُحسَم حتى يومنا هذا. ولكن، إن لم يكن حقًا كامِّرِر هو من تلاعب بعينة العلجوم، فمن قد يكون الفاعل؟ ولم أقدم على ذلك؟